الموازنة

بين الالعوبة الالهية ورسالة الغفران

— او —

بين ابي العلاء المعري ودانتي شاعر الطليان

= ٨ =

اما تسميته إياها بالالعوبة (Comedia) فهو مأخوذ من الاشتقاق الاصلي اللاتيني لهذا اللفظ ومعناه أغنية او أغان باليونانية ولعلهم اشتقوا من هذا اللفظ ايضاً لفظ (Comique) مضحك او مضحكات وهذا مشتق من الاصل اليوناني (Comus) وهو اسم اله الولائم عند اليونان .

ومن هذا الاشتقاق الأصلي يتضح لنا ان غرض دانتي لم يكن نظم ألعوبة للتفكه او التشخيص بل أغنيات يُتَغَنَّى بها في البيوت والكنائس ايام الاحاد والاعياد على مثال تغنيهم بزبور داود او نشيد الانشاد وان يبجل اسم ناظمها و يعد في جماعة القديسين لانه عرج قبل موته (في دعواه) على جهنم والمطهر والفردوس وخاطب الله بل حلت فيه روح الله القدوس .

ومن أظهر عيوبها بعدها عن المعقولات اي مخالفتها للمنطق ولا ينفي ذلك ماقدمناه من ان اعظم اركان الشعر هو الخيال لاننا اذا جردنا الخيال من المعقول لا يبقى ثمت خيال ولا شيء يسمى بشيء مثال ذلك ان يتخيل الشاعر فيقول : ان جسم محبوبته او الحسناء الموصوفة شفافاً تركب من عنصر الهواء وحاز من المحاسن اشكالاً تعجز عن وصفها ألسن الشعراء فهذا التخييل لا يخرج عن المعقول بجملته وان خرج ببعضه اذ اول ما يتبادر الى ذهن السامع من هذا الوصف ان جسم هذه الحسناء بضّ لطيف ذو بشرة تحاكي الشمع الشفاف او اللؤلؤ المكنون وان اعطافها قد لانت حتى كادت تكون من الأوهام والظنون وان محاسن قسماتها مما كان شاهده مرةً في بعض الصور او عاين مثله في بعض الدُمى من العاج او المرمر وان الناظر الى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

جملة محاسنها ينادي حاشا لله ما هذا بشر و ينصرف الفكر عن قوله تركّب من عنصر الهواء لان السامع او القارئ يستطيع ان يتصور حال سمعه هذا الوصف صورةً وجسماً وبعكس هذا مافي الالعوبة فان كل مافيها من التخييل ينفر من المعقول البشري اذ انه اول ما يصوّر لنا حكايته يصوّرها في ظلمة مدلهمّة ومن اين لنا ان نعاين المنظورات في تلك الظلمات بل انى لنا ان نشاهد الموهومات ؟ كقوله بحيرات ذوات مياهٍ نارية او نيران مائية قاتمة ثم يصف لنا أناساً عرفهم وعرفوه وآخرين ممن سمعنا باسمائهم في التواريخ ولكنه عاينهم ارواحاً لا أجسام لهم وذلك كله في تلك الظلمات الحالكات وانت لم تبصر حياتك كلها روحاً بل ان الروح التي يقال لك انها فيك لا تُنظر ولا تكيَّف ولا تحدّد ولا تعرّف وانما هي لفظ موضوع يردّد ولا يُدرَك ثم انه كان يجول في تلك النيران الجهنمية بلحمه وعظامه وثيابه بل تراه يقف مخاطباً هذا ومحادثاً ذاك كأنه في رائعة النهار في شارع من شوارع بلدته ولا نطيل بهذا فالالعوبة كلها على هذا النحو .

واذا نظرنا الى مابين المعري ودانتي من التباين في التخيل نجد في تخيل المعري شيئاً من شبه الامكان وآخراً من شبه المعقول واما في تخيل دانتي فاننا لا نستطيع له تصويراً او تخييلاً مع انه يكتب منظوماً ولكننا نشعر انه يموّه اكاذيب يلفقها وغرائب ينظمها قريحته ويصورها قلمه ليظهر براعة اختراع الموهومات .

وان قلت ان كليهما يصف اي يلفق اوهاماً وخيالات قلنا من شروط التصنيف ان لا يكون بعيداً عن المعقول كل البعد اي ممتنع الادراك كقولنا زيد حديد البصر شديد العمى او انه كان يذوب جسمه احتراقاً في الماء البارد او انه كان ينفر من برده في اتون النار وهذا او نحوه عين ما ورد في اكثر الالعوبة .

نعم قد جاء في كلام ابي العلاء شيء مما يخالف المعقول كقوله تنشق كل جوزة عن اربع جوارٍ ... وامثال هذا الا انه في ذكره ذلك يردد ما كان شائعاً بين بعض اهل عصره لا انه يعتقده ويقرره كقاعدة علمية او مسألة حسابية بل بالعكس من ذلك فان في معارضه كلامه بل في كل صفحة من رسالته ما يشعر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

باستبعاده امكان ما يشير اليه من الغرائب بل في كثير من جمله ما لا يترك لدى القارئ البصير سبيلاً للريب في هزله هذا ومازحته ٠

واين دانتي منه فان اللعنات التي رشق بها خصومه واعداءه حتى بعض الاساقفة والباباوات لم تكن عقيدة من عقائد اهل عصره وان ما عقده في جهنم من الجسور والقناطر وما تنطّس بذكره من الزوايا والمربعات الهندسية بل القصور ذوات الابواب السبعة لم يكن من معتقدات اهل عصره الى كثير جداً من مثله وانه طوّف بجهنم ذلك التطواف وعرّج على الفردوس ذلك التعريج ورأى ما ذكره وفصّله لم يكن الا دعوى منه بل زعمه ن روح الله حلت فيه كل ذلك بصفه لنا وصفاً دقيقاً ويذكره لا كمتهكم او مستبعدٍ امكان ذلك بل كواصف يروي حقائق لا يخامرها مزحٌ او شك ٠

وهب ان بعضها او اكثرها من معتقدات اهل عصره فهو يرويها على علاتها متيقناً كل اليقين منها ويزيدها من عنده كما تقدم البيان تفاصيل واختراعات ٠

وقد سبق لنا بيان شيء مما ذكرناه هنا للدلالة على مخالفته للخيال الشعري وافضنا هنا في ذكر ما تقدم للبرهان على مخالفته للمعقول والمنطق واليك مقابلة تظهر لك البون الشاسع بين لطف تصور الأعمى وذكائه وبعد مداركه وبين خشونة تصور دانتي ونظره المحدود مع مخالفته للمنطق والمعقول ٠

صوّر ابو العلاء جهنم صورة لا تتجاوز معقول القراء فجعل ابن القارح ينظر من علٍ الى أسفل جهنم عند تلاعنه وابليس كما مرّ بك وقول الزبانية لابليس حينما امرهم بجذب أبن القارح — لا سبيل الى ذلك يا ابازوبعة — اي لا نستطيع الصعود الى مقام ابن القارح فانه المقام الاعلى مقام الصالحين في الفردوس وهو جواب مقبول معقول عند من يتصور ان جهنم هي في وادٍ مثناه في العمق وان الفردوس فوق أرفع ما تراه الابصار من الأفق وهو تصوّر الجمهور ٠

ثم انه لما صوّر لنا ابن القارح يتنادم في الفردوس مع جماعة من الشعراء قال بعد وصفه خمور الجنة وذكره الآنية الذهبية ٠٠٠ وتهشّ نفوسهم للعب فيقذفون تلك الآنية في أنهار الرحيق ٠٠٠ ثم انه لما ذكر عربدة النابغة والاعشى قال ويثب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نابغة بني جعدة على ابي بصير فيضربه بكوز من ذهب فيقول (الضمير لابن القارح) أصلح الله به وعلى يديه لا عربدة في الجنان انما يُعرف ذلك في الدار الفانية بين السَفِلة والعجاج وانك يا ابا ليلى لمتترّع ·

فاذا نظر الناقد البصير في لطف هذا الوصف يراه لا يخرج في شيء عن المشهور والمفهوم عند عامة الخلق فضلاً عن خاصتهم فانه لم يجعل شراب اهل الفردوس شراباً موهوماً بل خمراً سائلاً ورحيقاً مشموماً وجعله أنهاراً لشغف العرب به وأجراها في الفردوس أمام المتنادمين وذكر الطاسات والاكواز والاباريق وهي مألوفة عند العرب ولاسيما عند وصف الشراب وصورها من الذهب وذلك لا يخرج عن المألوف المعروف عند الامراء والأكابر في الدار العاجلة فلا بدع ان تكون في الفردوس كذلك او أبهى وأغلى ولما ختم الوصف بعربدة النابغة على الشراب كعادته المشهورة في حياته قال فضربه بكوز من ذهب · وكل ذلك معقول يشربه الذهن دون تكلف او اجهاد ·

اما دانتي فانه لما أغار على هذا الوصف وسرق معانيه عمد اول شيء الى التخليط لاخفاء مواضع المسروق ومنابعه وافصاء نظر الناقد عن مشارعه ومطالعه فصوّر لعبة بين أناس من اهل لومبارديا وتوسكانا على بحيرة نارية وبينهم من يمسك بساعدي احد الشياطين ليوقفه عن جلد رفيقه ثم يهرب من وجه الأبالسة فيلحقونه ثم يعترضهم آخر ليحول بينهم وبين رفيقه الهارب الى آخر هذه القصة الغثيثة · (الاغنية الثانية والعشرون) ·

أيكون في جهنم لعب بين المغضوب عليهم والشياطين ؟ وتكون هناك بحيرة نارية (مظلمة كريهة الرائحة ولا ريب) ويلعب حولها اهل النار او هي تلك الارواح (التي تُرى ولا تُرى) واين اللعب من أناس يحترقون ويعذّبون على النحو الشنيع الفظيع الذي يصفه لنا هو نفسه ؟ وكيف يقوى المعذّب المحترق الضعيف على قوة الشيطان الرجيم سلطان الجحيم فيمسك بساعديه ؟ وكيف يهرب من وجهه والى اين ؟ ·

ان في الالعوبة كثيراً من امثال هذه الحكاية التافهة مما يخالف المعقول والمفهوم فان قيل انها وضعت شعراً لانها للخاصة من الناس قلنا كيف تكون للخاصة مما لا يسلك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في عقول صغار الاولاد فضلاً عن مخالفتها للمنطق من جميع وجوهها وان قيل انها للعامة على ما كان شائعاً بينهم يومئذ قلنا انه لم يشع في عصر من عصور الجهل المظلمة أمثال هذه الخرافات التي أطال وأشبع فيها النفصيل والتدقيق وهي كما علمت من الشعر الذي انحت لدبه رؤوس شعراء الامم الفرنجية لما اشتمل عليه من الفصاحة والتنميق ومثل هذا لا يكون نظمه للعامة على انه اذا تجرد من الفصاحة الشعرية عندهم وبعبارة اجلى اذا حللناه الى كلام وجدناه غير معقول ولا مفهوم وانما هو خلط موسوس او هذيان محموم .

وان قيل كيف تجتمع البلاغة الشعرية و براعة الوصف اللتين ملك بهما دانتي ثالث عرش لملوك الشعر عند الامم الافرنجية مع ما اوضحناه هنا من عيوب الالعوبة نجيب عن ذلك بمثال بل ببرهان يدفع عنا تهمة التعصب لفيلسوفنا العربي بالحط من منزلة دانتي العالية فما علو قدره بمنزل ابا العلاء عن مرتبته السامية عند عارفيه ولا شمس المعري كاسفة أنوار دانتي عند أقوامه ومريديه ومعاذ الله ان نقف غير موقف الانصاف في الموازنة والنقد او ان تكون خدمتنا غير الحقيقة ورائدنا غير الاخلاص في القصد .

« للبحث صلة »

عضو المجمع العلمي

قسطاكي الحمصي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net